شخصية الأمير عبد القادر الجزائري في شعره

الأستاذة: شهيرة برباري
قسم الآداب واللغة العربية
كلية الآداب واللغات
جامعة محمد خيضر – بسكرة

تسعى هذه المداخلة من خلال البحث في سمات شخصية الأمير عبد القادر، إلى محاولة النظر في نصوص شعرية تجلي أبعادها جماليا وفكريا، وارتباطها تشكيلا ودلالة بالنصوص الشعرية ممثلة بغرض الفخر الذاتي–كقضية إبداعية قائمة بذاتها في الخطاب الشعري للأمير عبد القادر الجزائري–، ونروم من خلاله تقديم مقاربة جمالية في قراءة هذه النصوص، وذلك لاستجلاء ملامح الشخصية والخصوصية الفردية للأمير في علاقتها بالمضمون الشعري.

***الشخصية* و*هوية الفرد*:**

الشخصية الإنسانية هي "شخصية الفرد بعينه وهي تعني أيضا الذات وهذا يعني أن هذا الفرد كيان متفرد خاص به يحمل صفاته وسماته وخصائصه وكل خصيصة فيه تختلف حتى عن خصيصة شقيقه التوأم هذه الصفات أو السمات يعرف بها وتفرقه عن الآخرين من البشر فهو تأكيد لذاته ونفي وجوده في الآخر فالأخر ليس هو، وهو ليس الآخر، فكلاهما مختلف في الصفات والسمات والخصائص الخاصة والعامة، ولكنه متشابه في التكوين والبنية والخلق الانساني، وما يهمنا هنا هي أن شخصية أي فرد لا تتساوى أبدا مع شخصية أي فرد آخر حتى وإن تشابه في اللون والحركات والإيماءات والتقارب النفسي والسمات الأخرى، هذا التشابه مهما بدا في الظاهر تشابها في المظهر والسلوك، وفي الباطن في الذكاء والمزاج وغير ذلك من الفروق الدقيقة التي تعطي لكل شخصية صفاتها المميزة والخاصة بها"[1]

فالهوية هي الذاتية والخصوصية، وهي المبادئ والقيم والمثل هي كل ذلك وأكثر من ذلك، وتحكمها سياقات الدين واللغة والوطن والتاريخ والسياسة والثقافة بكل أبعادها الفكرية

والاجتماعية، ووفق مضامين ومكونات تحكمها التغيرات الطارئة والمؤثرة في هذه الأبعاد وتلك السياقات.

وإذا تتبعنا مصطلح 'الهوية' نجد أنه ذو أرضية فلسفية يمثل ضمنها أحد المفاهيم التجريدية المعبرة والدالة على الماهية والوجود والجوهر...، وبانتقالها مصطلحا ومفهوما إلى البحوث الاجتماعية أصبحت تعبر عن فكرة الانتماء.

"والشخصية ليست مجرد لفظ لغوي بسيط وإنما هو مفهوم عقلي، يبني من خلال اللغة الفلسفية (مفهوم الأنا، مفهوم وحدة الشخص، الهوية ، الذات...) كمفهوم ميتافيزيقي أخلاقي، بينما مفهوم الشخصية هو مفهوم سيكولوجي، هو التعبير الخارجي عن الشخص."[2]

حيث يمكن القول: "إن الشخصية هي التنظيم الدينامي في الفرد لتلك الأجهزة الجسمية النفسية التي تحدد مطابقة الفرد في التوافق مع بيئته؛ إنها التنظيم الثابت المستمر نسبيا لخلق الشخص ومزاجه وعقله وجسده، وهذا التنظيم هو الذي يحدد تكيفه الفريد مع محيطه."[3]؛ فهي مجموعة الصفات الجسمية والعقلية والانفعالية والاجتماعية التي تظهر في العلاقات الاجتماعية لفرد بعينه وتميزه عن غيره.

والهوية في مفهومها الاصطلاحي تشير إلى أنها: "القدر الثابت والجوهري، والمشترك من السمات والقسمات العامة التي تميز حضارة هذه الأمة عن غيرها من الحضارات، والتي تجعل للشخصية الوطنية أو القومية طابعا تتميز به عن الشخصيات الوطنية والقومية الأخرى"[4]؛ فهي تدل على الخصوصية التي تتحدد وفقها سمات حضارة أو أمة تتميز بها وتختلف فيها عن غيرها من الأمم أو الحضارات في نوع من الاستقلالية الذاتية على مستوى الجماعة، وتفاعل الأفراد داخلها ضمن مفهوم التجانس الذي تخلقه خصوصية هذه الجماعة.

ولا يمكننا أن نخرج في ذلك عن قسمين اثنين متداخلين للهوية هما:

1- "هوية فردية: وهي مجموعة علامات أو سمات وقرائن نفسية وجسدية خاصة بشخص بعينه تميزه عن غيره من أبناء جنسه...

2- هوية وطنية أو قومية: وهي مجموعة من الصفات أو السمات الثقافية العامة التي تمثل الحد الأدنى المشترك بين جميع الأفراد الذين ينتمون إلى هذه الأمة أو هذا الشعب.

والاختلاف في مقومات الهوية الفردية والهوية القومية هو اختلاف في النوع وليس في الدرجة؛ فالهوية الفردية ذات سمات جسدية بالأساس والهوية القومية ذات سمات ثقافية بالأساس، ولا تناقض بينهما"[5]، فالأولى تميز الفرد داخل الجماعة الواحدة، والثانية تميز الجماعة الواحدة أو الأمة عن غيرها من الأمم.

ولعل الرابط بين سمات الشخصية وهوية الفرد أنها مفهومان يشيران دلالة إلى خاصية ما هو مماثل ومطابق لذاته، والإنسان يتميز بتعقده وتحدده بشروط ذاتية (الشخص، الذات الفردية، الأنا) وتفاعلية (الآخر أو الغير)، وتاريخية (الزمان)، فهوية الفرد وشخصيته تعني تطابقه ووحدته مع ذاته هيئة وفكرا ووجدانا.

وضمن هذا التوجه تدور مقاربتنا هذه حيث اعتمدنا في قراءتنا البحث في ملامح الهوية الفردية في النص الشعري الفخري الأميري الذي بين أيدينا متمثلا بشخصه للفرد وما توحيه نصوصه الفخرية من دلالات على شخصيته في جانبي الظاهر والباطن، ويمثل هذا التحديد محاولة منا لتجاوز التعدد والتنوع والاختلاف والخلاف الوارد حول 'الشخصية أو هوية الفرد' مصطلحا ومفهوما وكثرة علائقها بالأبعاد النفسية والاجتماعية والسياسية والحضارية...، إضافة إلى ارتباطها الفكري بالفلسفة والمنطق تأصيلا.

كما لا تفوتنا الإشارة إلى علاقتها -بشكل عام- بالأدب الذي يمثل بلغته الإبداعية فنا تعبيريا عن الإنسان بهمومه وطموحاته، وفكره ومشاعره، بقضاياه ورؤاه، بوجدانه الفردي وحسه القومي، بعاطفته وموضوعيته، بذاتيته وانفتاحه، بخصوصية معانيه وعمومها، بالتركيز على النص الشعري وتجلي الهوية فيه من خلال قيمة الوعي الجمعي والقومي وعلاقته بالوصف والفكر الفردي الذي تمثله الذات الشاعرة.

بين يدي المبدع و النص:

لا يمكن بحال الحديث بإلمام عن هذه الشخصية العظيمة في جانب السيرة مولدا ونشأة ومعالم حياة شملت جوانب دينية وفكرية وسياسية وعسكرية وقيادية وعرفانية وأدبية، في هكذا

مقام وهكذا مقاربة، كما لا يمكن اختصار كل ذلك بأسلوب مركز وشامل لتلك المعالم، فحياة الأمير عبد القادر هي حياة السلالة الطيبة التي انحدر منها، وروح المجتمع الذي نشأ فيه، وصوت الأمة التي ثار وقاوم ونافح من أجلها، وعنوان الدولة التي أخلص في بنائها، وسيف الجيش العظيم الذي أنشأه، وفكر وقلم العارف والأديب الشاعر الذي سطر بمداده تاريخ ومجد وحضارة أمة، وقيم ومبادئ ومعالم دين، وشرف وطموح إنسان، ولغة وجمالية ووجدان مبدع.

كما أن الدراسة تركز على المحور الإبداعي الشعري الفخري للأمير الشاعر، لذلك سنحاول مجاوزة الحديث عن حياة الأمير ونشأته بتفصيلاتها

لنقتطف من ذلك مجمل قول مفاده أن "الأمير عبد القادر الجزائري ذو نسب عربي أصيل؛ له أواصره الدموية المرتبطة بسلالة النبي محمد صلى الله عليه وسلم، ولد في الثالث والعشرين من رجب من عام 1222هـ (1807م)، في قرية القيطنة بسهل غريس قرب مدينة معسكر الواقعة في الجنوب الشرقي من مدينة وهران"[6].

وقد نشأ الأمير عبد القادر نشأة عربية بدوية عمادها تربية إسلامية مرتبطة بتعاليم القرآن، وتمرن منذ الصغر على تعلم الفروسية ذات التطلع والطموح إلى سماء المجد في ضوء ذلك الإحساس بالانتماء إلى أسرة عريقة في مجال الشرف والأمجاد التاريخية، وقد كان للأمير في بداية مراحل بناء دولته اهتمام بالغ بالجانبين السياسي والتنظيمي، فقد قوى علاقاته مع الدول المجاورة ودول المشرق، واستمد سياسته من تعاليم الدين الإسلامي، فجعل من القرآن الكريم دستورا تصلح به أمور الدين والدولة، فما جاء متفقا معه أخذ به وما كان مختلفا تركه جانبا ونهى عنه، وفضلا عن ذلك فقد انتهج الأمير سياسة الوحدة الوطنية متحاشيا الشعور بالوحدة القبلية، متجاوزا بذلك الطبقية بين الحاكم والمحكوم، منتهجا في سياسته الحكيمة سبيل الاهتمام بالجوانب التعليمية والاقتصادية والسياسية والعسكرية، وانطلاقا من روح التدين التي عرف بها الأمير؛ فقد دأب على غرس مكارم الأخلاق ونشر الأخوة الإسلامية وتوطيدها بين الناس.[7]

فكان قائدا إماما جليلا، عالما عاملا نبيها نبيلا، زاهدا ورعا مهابا شجاعا، كريما حليما أوابا، وعاش على ذلك إلى أن وافته المنية في الرابع والعشرين من ماي عام 1883م[8]، رحمه الله وجعل الجنة مثواه.

"وحسبه عظمة وخلودا ما كان له في حركة النهضة العربية الإسلامية من مشاركة مشرفة، تلك التي تبدو في هذه الصور:

– إسهاماته النظرية ومواقفه الميدانية، وغيرته القوية عن تعاليم الدين الإسلامي، وذوده عن حياضه، وإبرازه الصورة الصحيحة له: عقيدة وشريعة، أخلاقا ومعاملات، قيما وحضارة.

– استجابته الصادقة لنداء الأمة المكلومة بسيف الغزو الصليبي، واضطلاعه بأعباء التصدي لأدواته ومخططاته وصنائعه، ودفع غائلتهم عنها .

– حرصه على تآخي المسلمين ووحدة صفهم، ونبذ كل أسباب التفرقة فيما بينهم ، وحضهم على التسامح، وحسن المعاملة، مع كل من يساكنهم من أبناء الملل والنحل الأخرى.

– إن موقفه الإنساني في إطفاء نار الفتنة التي اندلعت ما بين المسلمين والمسيحيين بلبنان ودمشق 1860م، لا ينساه له التاريخ، ولا تنساه له الإنسانية.

وقد استطاع الأمير بهذه الخصال الإنسانية النبيلة، أن يجمع في جهاده ما بين التصدي للغزو الصليبي الفرنسي بسيفه في ساح المعركة، وبين إسهامه في عملية تجديد الفكر الإسلامي وإيقاظ المسلمين بالقلم عن طريق الكتابة العلمية والأدبية."[9]

ويمثل الأمير عبد القادر نموذجا مميزا في تاريخ الأدب الجزائري بسبب تعاطيه شيئا من الكتابة من موقع متميز وفي وقت خاص، كانت فيه بلاده تصارع ما ابتليت به على أيدي الاستدمار الفرنسي من أنواع الظلم والقهر والطغيان، وخلف نتاجا أدبيا يستحق التأمل والدراسة في جانبيه الفكري والإبداعي "وأهم هذه الآثار: المقراض الحاد لقطع لسان الطاعن في دين الإسلام من أهل الباطل والإلحاد، ذكرى العاقل وتنبيه الغافل، المواقف في التصوف والوعظ والإرشاد"[10]، وديوان شعري حفل بالتحقيق والشرح من الدارسين، والطبعة التي بين أيدينا من تحقيق الدكتور العربي دحو؛ وهي "تضم معظم أشعار الأمير عبد القادر، وتتراوح بين القصائد المطولة والمقطوعات الشعرية، وقد صنف المحقق شعر الأمير تصنيفا موضوعاتيا فجاء على النحو التالي:

- الفخر: ويضم سبع (7) قصائد.
- الغزل: ويضم إحدى عشرة (11) قصيدة.

- مساجلات: ويضم سبعة عشرة (17) قصيدة.
- مناسبات: ويضم عشرين (20) قصيدة.
- التصوف: ويضم تسع (9) قصائد.

والملحق الذي وزع المحقق قصائده على النحو التالي:

- المواقف: وتتضمن أربعة عشرة (14) قصيدة.
- المذكرات: وتتضمن قصيدتين اثنتين."[11]

وسيكون تركيزنا على شعر الفخر من هذا الديوان الذي اخترناه مادة لهذه المقاربة؛ حيث يمثل الخطاب الشعري للأمير عبد القادر في ثوبه الفخري نصا حيويا ثريا منفتحا على القراءات الجمالية والفكرية بما يزخر به من مكونات لغوية وتصويرية أو مضامين قومية ووطنية...، هذا ويمثل شعر الفخر في الخطاب الشعري للأمير عبد القادر أحد أهم الفنون الشعرية التي عالجها الأمير في ديوانه، وذلك لارتباطه بنضال الأمير، وبطولاته، وحماسته.

وفيما يلي محاولة استنطاق للنص الأميري الفخري الذاتي بحثا عن تجليات هويته الفردية وملامح شخصيته بمقوماتها الفكرية وأبعادها الجمالية.

تجلي الهوية الشخصية الأمير عبد القادر من خلال شعره:

إن الشعر مادة وعنصر فعال ومحرك لكل نشاط فكري مارسه الإنسان، فهو قيمة معرفية وفكرية وفنية وجمالية، لذا كان منذ القدم أداة الإنسان في التعبير وحفظ الأخبار والأيام والعادات وكل ما يتصل بجوانب الحياة في بساطتها وتعقيدها، وهو وسيلة للمنافحة والدفاع عن الأمجاد ونقل البطولات وتخليد أصحابها؛"والفخر فن من فنون الشعر الغنائي يتغنى فيه الشاعر بنفسه أو بقومه انطلاقا من حب الذات كنزعة إنسانية طبيعية، ولم يكن الفخر هدفا بحد ذاته لكنه كان وسيلة لرسم صورة عن النفس ليخافها الأعداء فتجعلهم يترددون طويلا قبل التعرض للشاعر أو لقبيلته؛ إذن الفخر كان له أكثر من معنى وأكثر من دور، فبالإضافة إلى التصاقه الشديد بالذات الإنسانية يعتبر حدودا تمنع الأعداء من التقدم"[12]؛ فكان ديوانا يرسم وينقل تفاصيل حياة شعب أو أمة ويحفظ لها مقوماتها وقضاياها وهمومها ومرجعياتها، فكان أحد أهم وسائل نقل وإرساء معالم الهوية.

ومن المعروف عبر التاريخ دأب الخصوم والمعادين والمحتلين في اهتمامهم ابتداء بمحاولة طمس هذه المعالم والقضاء عليها كمطلب ضروري لبسط السيطرة وتحقيق الغلبة سواء كان ذلك اتجاه شخص أو جماعة، وهذا ما سعى إليه المستدمر الفرنسي منذ احتلاله للجزائر؛ حيث عمل على إلغاء هوية الكيان الجزائري منذ البداية، فتحول موضوع الهوية الجزائرية وسيلة للدفاع عن الوطن، وموضوعا للكفاح والمقاومة عملا ميدانيا وفكريا وأدبيا.

ولعل الأمير عبد القادر الجزائري قد مثل هذه القيمة بمكانته القيادية والفكرية والإبداعية، فكان شعره الفخري نموذجا جيدا لتحقيق هذا الهدف قيمة وتعبيرا، على مستوى شخصه فردا وأمته جماعة، وفيما يأتي نماذج فخرية للأمير لهذا التجلي بمستواه الفردي أو الشخصي.

تتنوع دوافع الفخر بتنوع شخصية الشاعر وبيئته وزمانه واهتماماته، والأمير عبد القادر بتميزه مكانة ومعرفة وفكرا، فقد عكس شعره هذه المكانة وذلك التميز.

واعتداد الشاعر بنفسه سمة بارزة في غرض الفخر، "فالإنسان بطبيعته يحب ذاته، ويتأمل نفسه كثيرا ويقارن بينه وبين غيره من الناس"[13]، ونقف من ذلك عند المقطوعة الشعرية الأميرية ***'وراء الصورة'*** التي يفخر فيها بنفسه مبرزا بعض ملامحه الشكلية والفكرية أين تتجلى هويته الفردية ممثلة في شخصه ارتباطا بصورته وهيئته، يقول:

لَئِنْ كَانَ هَذَا الرَّسْمُ يُعْطِيكَ ظَاهِرِي فَلَيْسَ يُعْطِيكَ الرَّسْمُ صُورَتَنَا العُظْمَى

فَثَمَّ، وَرَاءَ الرَّسْمِ، شَخْصٌ مُحَجَّبٌ لَهُ هِمَّةٌ، تَعْلُو بِأَخْمَصِهَا النَّجْمَا

وَمَا المَرْءُ بِالوَجْهِ الصَّبِيحِ اخْتِيَارُهُ وَلَكِنَّهُ بِالعَقْلِ وَبِالخُلُقِ الأَسْمَى

وَإِنْ جُمِعَتْ لِلْمَرْءِ هَذِي وَهَذِهِ فَذَاكَ الَّذِي لَا يُبْتَغَى بَعْدَهُ نُعْمَى[14]

وقد كان من عادة الأمير أن يكتب هذه الأبيات تحت صورته أو خلفها لمن يهديها له[15]؛ لذا حملت عنوان (وراء الصورة) الذي يحمل إشارة توحي بتقديمه لبطاقة تعريفية بنفسه، فالصورة التي تحمل ملامح الإنسان الخارجية أو الجسمية بتفاصيلها تحدد هوية الفرد الذاتية، التي يختلف بها عن غيره بدءا بأفراد أسرته ومن خلالها يدرك الفرد تميزه عن غيره فتتحقق ذاته بشكله الخارجي؛ هذا الشكل الذي يمكن الآخر المختلف من رسم انطباع ما عن الشخص ما عبر عنه الأمير الشاعر بقوله: ***(لَئِنْ كَانَ هَذَا الرَّسْمُ يُعْطِيكَ ظَاهِرِي)***؛ فالصورة الخارجية

التي تمثل هيئة الإنسان رسم يحدد سمات خاصة ذاتية تقدم بدورها ملامح وصفات ظاهرية التي تؤكد افتخاره بما منحه الرحمن من صورة قويمة جميلة الوصف؛ يظهر ذلك في قوله: ***(بِالوَجْهِ الصَّبِيحِ)*** دلالة على ما تحمله صورته من سمت جميل فصفة ***(الصّبيح)*** من صيغ المبالغة (فعيل) الدالة على تعميق المعنى بالصفة، وهي هنا تدل على الإشراق والنور والتألق وتشير مبالغة إلى التمتع بالجمال، ونقف من ذلك عند ما عرف عن الأمير عبد القادر من صفات خَلقية؛ حيث وصفت ملامحه بأنها "كانت من أصفى الطابع الكلاسيكي، كانت جذابة لوسامته المعبرة التي كادت تكون جمالا أنثويا، فأنفه الذي يتوسط وجهه في حجم وسطي وفي شكل رائع – كان بين الأنف الإغريقي والروماني– وشفتاه المنحوتتان بدقة والمضغوطتان قليلا تنبسان بتحفظ مهيب وبوثوق في الهدف، بينما تشع عيناه صافيتان في لون البندق تحت جبهة عريضة في بياض الرخام مع نعومة مكتومة وحزينة أو تتألقان بأشعة العبقرية والذكاء"[16]، هذا الوصف الدقيق لملامح الهيئة تركيزا على الوجه هو تحديد لشخصية الفرد بقرائن خارجية جسمانية لا يشبه فيها غيره وهي في الوقت ذاته تقدم صورة ظاهرية تدل عليه لغيره، ولعل الوجه بتفصيلاته المتعددة والمختلفة أساس تقديم هذا الظاهر وجوهر تحديد هذه الشخصية.

كما تتحد ملامح شخصية الفرد الذاتية الظاهرية بقرائن مكملة للسمات الخَلقية، وهي مركبات هيئة الإنسان في وصف مظهره الخارجي الذي تشكله عناصر الزينة من ثياب وغيرها ليكتمل 'الرسم' الذي تكرر ثلاث مرات في النص الذي بين أيدينا تعبيرا من الأمير عبد القادر على هيئته؛ ومن ذلك أن " كساءه كان بسيطا وصريحا، وليس سوى سلاحه يظهر الزينة، فقد كانت بندقيته التونسية الطويلة مرصعة بالفضة، أما مسدسه فقد كان مرصعا بالجواهر، وكان سيفه الدمشقي مغمدا في غمد من فضة، إن هذه المرافق مع المنح التي خصت بها طبيعة شخصه قد أعطت لمظهره مهابة يصعب التعبير عنها"[17]، المهابة التي صاحبت وصف الأمير القائد الفارس "فكان لا يدانيه أحد فروسية، ولم يكن عبد القادر فارسا مهيبا فحسب بل إن تفوقه المدهش في كل متطلبات الفروسية، التي توجب العين القوية واليد الثابتة والرجولة الحقة، كانت حديث كل أولئك الذين عرفوه"[18]، حيث شكلت الملامح الظاهرية للأمير عبد القادر صفات متفردة مميزه لشخصه دون غيره.

وهو إذ ذاك لا يفخر بهذا الظاهر إلا من خلال ارتباطه بما يعكسه الداخل المعبر بدوره عن قوام هويته الفردية بما يحمل من فكر ووجدان وأخلاق وقيم على اختلاف جوانبها سماها ***(صُورَتَنَا العُظْمَى)***؛ لتتحدد العظمة فيما وراء الصورة الظاهرة للفرد من ***(همّة وعقل وخلق أسمى)***؛ فالعقل يعبر عن الفكر وحسن التدبير والحكمة، والهمة ترتبط بالعمل والتسيير وتوجيه النفس، أما الخلق فيدل على القيم والمثل والمبادئ الشرعية والإنسانية في ارتباطها بالفكر والعمل، وهو اختيار واستخدام موفق للألفاظ بإيجازها المركز دلت على العموم، وهي محل الفخر في نظر الأمير عبد القادر وتتم بها النعمة في اجتماعها مع الصفات الخَلقية للفرد، والتي تحقق باجتماعها هوية الفرد الحقيقية بكل أبعادها ومستوياتها: *الواقعية:* وهي التي يدرك بها الفرد إمكانياته وقدراته ومكانته والأدوار المناطة به في العالم الخارجي، ويتضمن هذا المستوى من الذات الاتجاهات الشعورية للفرد نحو نفسه. *الذات الاجتماعية:* وهي ذاتنا كما نعتقد أن الآخرين يرونها، وعلى الرغم من أن هذه النظرة قد لا تكون مطابقة في الواقع للصورة التي يرانا بها الآخرون فعلا، فإن لهذا المستوى تأثيرا مباشرا في سلوكنا والطريقة التي نجهد بها لإثبات هويتنا. *والذات الظاهرية:* يفسر بها الفرد في الغالب القيمة الاجتماعية للذات على ضوء خبراته الشخصية. *والذات المثالية:* وهي النموذج الذي يرغب الشخص أو يأمل أن يكون عليه"[19]؛ فهوية الفرد لا تكتمل ظهورا وتعبيرا إلا باجتماع هذه المستويات بانسجام وتجانس بينها وتفاعل يخلق للهوية الفردية وحدتها، وبانفصالها تبقى غير واضحة في جانب من جوانبها وهذا ما ناسبه ودل عليه التعبير الشعري للأمير في قوله ***(قُمْ، وَرَاءَ الرَّسْمِ، شَخْصٌ مُحَجَّبٌ)***؛ حيث تقصر الهيئة الظاهرة لوحدها عن تحديد هوية الشخص الذي يبقى محجبا عن غيره بغياب ملمحه الداخلي الذي يكمن وراء رسمه وصورته الخارجية فكرا ووجدانا.

لقد شكل النص الشعري 'وراء الصورة' للأمير عبد القادر على قصره (أربعة أبيات) دالا مركزا منفتحا على الدلالات التي تصب كلها في تحديد معالم وملامح وأبعاد ومستويات الهوية الفردية في تعبيرها عن شخص الأمير عبد القادر ظاهرا وباطنا، بأسلوب تصويري بارع دقيق، حمل مع دقته وإيجازه تفاصيل شخص الأمير عبد القادر في هيئته الخارجية وكوامنه الداخلية نفسا وفكرا وقيما، ناقلا للقارئ تجليات الهوية الفردية الأميرية في تميزها عن غيرها من الأفراد بخصوصيات حددت له رسما معينا يختلف ويتفرد به داخليا وخارجيا.

ومن نماذج تجلي شخصية الفرد في فخريات الأمير قصيدة ***'بي يحتمي جيشي'*** التي نقف عندها محاولين استجلاء مكامنها، يقول:

تُسَائِلُنِـي أُمّ البَنِينِ، وَانَّـــــهَا لأَعْلَمُ مَنْ تَحْتَ السَّمَاءِ بِأَحْوَالِي

أَلَمْ تَعْلَمِي يَا رَبَّةَ الخِدْرِ أَنَّـنِـي أُجَلِّي هُمُومَ القَوْمِ فِي يَوْمِ تِجْوَالِي؟

وَأَغْشَى مَضِيقَ المَوْتِ لاَ مُتَهَيِّبًا وَأَحْمِي نِسَاءَ الحَيِّ فِي يَوْمِ تِهْوَالِ

يَثِقْنَ النِّسَا بِي حَيْثُمَا كُنْتُ حَاضِرًا وَلاَ تَثِقْنَ فِي زَوْجِهَا ذَاتَ خِلْخَالِ[20]

إن لهذه المقدمة في طريقة صياغتها اتباع لمنهج الشعر القديم في بناء مقدماته التي تستبكي الطلل وتستوقف الربع وتتغزل بالحبيبة، هذه الحبيبة التي تظهر في صورة الزوجة المسائلة لزوجها الأمير البطل عن بطولاته في تركيب حواري يصور العلاقة الراقية الحميمة بين الأمير عبد القادر وزوجته، يظهر ذلك في قوله ***(وَانَّـهَا لأَعْلَمُ مَنْ تَحْتَ السَّمَاءِ بِأَحْوَالِي)*** في إشارة إلى خصوصية هذه العلاقة ووصفها متغزلا ***(بَرَبَّةَ الخِدْرِ)*** و***(أُمّ البَنِينِ)*** وهذا دأب الشعراء في مقدمات قصائدهم.

ولكن الذي يعنينا في هذا المقام هو فخر الأمير بنفسه وشخصيته المحاربة البطلة حين قدمها في صورة حامي النساء وملاذهن عند طلب الأمن في حال الحرب بثقة لا حدود لها تفوق ثقتهن بأزواجهن أمام حضور الأمير، وهذا ما يشير إليه أسلوب المبالغة في البيت الأخير؛ وما ذلك إلا اعتداد بنفسه وبطولته ومهابته، ويكمل قائلا:

أَمِيرٌ إِذَا مَا كَانَ جَيْشِي مُقْبِلاً وَموقِدُ نَارِ الحَربِ إِنْ لَمْ يَكُنْ صَالِي

إِذَا مَا لَقِيتُ الخَيْلَ إِنِّـــــي لأَوَّلٌ وَإِنْ جَالَ أَصْحَابِي فَإِنِّي لَهَا تَـالِ

أُدَافِعُ عَنْهُم مَا يَخَافُونَ مِنْ رَدًى فَيَشْكُرُ كُلّ الخَلْقِ مِنْ حُسْنِ أَفْعَالِي

وَأُورِدُ رَايَاتِ الطِّعَانِ صَحِيـــــحَةً وَأُصْدُرُهـــــــا بِالرَّمْيِ تِمْثَالَ غِرْبَالِ

وَمِنْ عَادَةِ السَّادَاتِ بِالجَيْشِ تَحْتَمِي وَبِي يَحْتَمِي جَيْشِي وَتُحْرَسُ أَبْطَالِي

وَبِي تَتَّقِي يَوْمَ الطِّعَانِ فـــــــــوَارِسٌ تَخَالِيَهُمْ فِي الحَرْبِ أَمْثَالَ أَشْبَالِ

إِذَا مَا اشْتَكَتْ خَيْلِي الجِرَاحَ تَحَمْحُمَا أَقُولُ لَهَا صَبْرًا كَصَبْرِي وإِجْمَالِي

وأَبْذُلُ يَوْمَ الرَّوْعِ نفْسًـــــا كَرِيمَـــــةً عَلَى أَنَّهَا فِي السِّلْمِ أَغْلَى مِنَ الغَالِي[21]

حيث تظهر هذه الأبيات المسؤولية التي يتحملها الأمير اتجاه وطنه وجيشه، مفتخرا بهذه المسؤولية ومقدرته على تحملها قائدا وزعيما يذود ويدافع عن جيشه متقدما صفوفهم، مقاتلا دونهم، حاميا لهم، فهو الأمير لهم حين تقدمهم وآخرهم حين رجوعهم، باذلا لأجلهم النفس أغلى ما يملك الإنسان، وهو على غير عادة الزعماء في علاقتهم بجيشهم الذي يكون حاميا لأميره، فهو له حام، وشبه في ذلك هؤلاء الفوارس من جيشه في احتمائهم به بالأشبال الذين يحتمون بالأسد حين الخطر:

وبِي تَتَّقِي يَوْمَ الطِّعَانِ فَوَارِسٌ تَحَالِيْهُمْ فِي الحَرْبِ أَمْثَالَ أَشْبَالِ

في صورة تشبيهية تمثيلية عمقت المعنى مبالغة في الاعتداد بالنفس وإثباتا للمهابة والقوة، وأكثر من ذلك يشير إلى أصالته في الفروسية وعلاقته بفرسه حين الحرب:

إِذَا مَا اشْتَكَتْ خَيْلِي الجِرَاحَ تَحَمْحُمَا أَقُولُ لَهَا صَبْرًا كَصَبْرِي وإِجْمَالِي

ما يوحي بأن الأمير القائد يمثل ملاذا ومصدر أمن ودفاع عن الفرس التي تشكو إليه فيحنو عليها لتصبر، كجميل صبره، ووجه الشبه بين الفارس والفرس هو الإقدام والتحمل وبذل النفس والجود بها؛ فهذا يقدم ويجود لأجل جيشه وتلك تقدم وتجود لأجل فارسها.

تبدو شخصية الأمير عبد القادر من خلال هذه الأبيات الحماسية الفخرية ذات صفات خاصة فريدة؛ كيف لا وهو القائد الزعيم البطل الذي لا يدانيه أحد في شجاعته وإقدامه ودفاعه عن جيشه، وهذه الصفات لا تجتمع إلا لعظيم ولا يدركها إلا شخص متفرد ذو همة عالية وفكر متقد في التعامل مع المعارك والحروب، لتتحدد هويته الفردية الممثلة "للأنا" في تميزها بقيم وملامح قيادية وبطولية تميزه عن غيره باختلافه فيها ضمن علاقته وتفاعله تجاه غيره (جيشه)، وهو إذ يفخر ويعتز بذلك بأسلوب حماسي يقدم صورة توحي بإثبات تميزه بمثل ومقومات لا يشابهه فيها أحد، تقترب به من الأسطورية في المجد والبطولة والخلود، فجمع بذلك بين التعبير عن شخصيته وإبراز هويته؛ حيث إن "تأكيد الهوية يتطلب القدرة على الاندماج وتحقيق التجانس الداخلي، أي ظهور شخصية فردية ومدى قدرة تلك الشخصية على

تنسيق السلوك العام للفرد في الزمان والمكان، غير أن هناك فرقا بين مفهوم الشخصية ومفهوم الهوية الفردية، فالشخصية تتضمن هوية الفرد أثناء الفعل الفردي في مستوياته العقلية والنفسية والاجتماعية، في وضعية ثقافية يعبر عنها الفرد باسم الجماعة، ونقرأ فيها بصماته المميزة، أما الهوية الفردية فهي في علاقة مع الآخر وعن طريقها يتعرف الشخص على نفسه ويصنف الهويات الأخرى بناء على تلك العلاقة"[22]؛ فالأمير عبد القادر قدم توصيفا لهويته الفردية من خلال علاقته بجيشه كقائد ومدافع وحام له، محاولا في الوقت ذاته تعزيز قيمه ومثله الشخصية ضمن هذه العلاقة.

وإذا تأملنا في عنوان القصيدة ***'بِي يَحْتَمِي جَيْشِي'*** نلاحظ تقديم شبه الجملة (بي) عن الفعل والفاعل (يحتمي جيشي) والأصل (يحتمي جيشي بي)، والتقديم والتأخير أسلوب بلاغي لعل من أبرز دلالاته ووظائفه البلاغية لفت الانتباه للعنصر المقدم للاهتمام به والتأكيد على دلالة معينة حسب السياق، وتقديم (بي) في الجملة (بي يحتمي جيشي) فيه إشارة إلى التأكيد على مكانة الأمير في جيشه زعيما وقائدا تنسب له الأولية والأسبقية على صفوف جيشه، ودلالة على صفات هذه الأولية من القدرة والقوة والمهابة المتفردة في شخصه دون غيره، كما توحي بإبراز عظمة الأمير عبد القادر الذي شكل درعا واقيا دون جيشه فاقتضى تقديم اللفظ الدال على ذلك، كما نسب الجيش لنفسه بقوله (جيشي) دلالة على تبعيته له وانتسابه إليه ومعرفته به، وفضلا عن ذلك التفاف عناصره حول قائدهم واحتماؤهم به كما دلت على ذلك الأبيات السابقة تفصيلا لإجمال العنوان.

والجيش ركن الدولة الأعظم ومبدأ أمنها ومركز قوتها، فكان لشخصية قائد الجيش أن يتصف بصفات القوة والقدرة التي تعكس قوة وقدرة الجيش.

ويؤكد على هذه المعاني التي تبرز ملامح الهوية الفردية للأمير عبد القادر في علاقته بجنود جيشه، وسمات شخصيته في فعله ودوره البطولي الداخلي تجاه جيشه، فخره واعتزازه بتجلي هذه الهوية والشخصية في أعماله البطولية الخارجية ضد الآخر المتمثل في العدو (الجيش الفرنسي)، يقول:

وَعَنّي سَلِي جَيْشَ الفَرَنْسيس تَعْلَمِي بِأَنَّ مَنَايَاهُمْ بِسَيْفِي وعِسَالِي

سَلِي اللَّيلَ عنّي كَمْ شَقَقْتُ أَدِيمَهُ عَلَى ضَامِرِ الجَنْبين مُعْتَدِلٍ عَالِ

سَلِي البِيدَ عَنِّي وَالمَفَاوِزَ والرُّبَى وَسَهْلاً وحَزْنًا كَمْ طَوَيْتُ بِرَحَالِي

فَمَا هِمَّتِي إلاَّ مُقَارَعَةَ العِدَا وَهَزْمِي أَبْطَالاً شِدَادًا بِأَبْطَالِي

فَلاَ تَهْزَئِي بِي واعْلَمِي أَنَّنِي الَّذِي أُهَابُ، وَلَوْ أَصْبَحْتُ تَحْتَ الثَّرَى بَالِي[23]

فهذه الأبيات تصف حاله في الحرب، حيث تبدو شخصيته الحربية فاعلة محققة للمجد، مفتخرا بفروسيته وبطولاته التي شهد عليها المكان (البيد، الربى، السهل،...) والزمان (الليل) والناس (جيش الفرنسيس، العدا)، وكأني به يعلو بصوت الأنا التي علا بها قبله المتنبي في قوله:

الخَيْلُ واللَّيْلُ والبَيْدَاءُ تَعْرِفُنِي وَالسَّيْفُ والرُّمْحُ والقِرطَاسُ والقَلَم

والتي يرمز بها المتنبي بدوره عن حدود الزمان والمكان وقرائن الحرب والسلم.

فإشارة الأمير إلى الشهود على مجده وبطولته وشجاعته ونضاله ومواقفه وانتصاراته من عناصر الحياة والحرب، هي تأكيد على صورته الحربية الأسطورية التي شهد لها العدو قبل الصديق، وستشهد له بها موته بعد حياته بأسلوب مبالغة:***(أَنَّنِي الَّذِي أُهَابُ، وَلَوْ أَصْبَحْتُ تَحْتَ الثَّرَى بَالِي)***، فيا له من مجد ويا له من شأن عظيم.

وقد حقق له غرض الفخر القدرة على التعبير عن وعيه بهويته الخاصة، حيث أظهر لنا سمو وتضخم الأنا لدى الأمير عبد القادر اعتزازا بشخصيته وقدراته الحربية، ومكانته القيادية، وشجاعته وإقدامه في ردع الخطر، وبذل نفسه الكريمة في سبيل ذلك، مستخدما صيغة المتكلم المفرد (عنّي) التي تكررت ثلاث مرات في هذا المقطع والتكرار أسلوب تأكيدي يعمق الدلالة حيث تبقى الصيغة المكررة تتجدد في ذهن القارئ ملفتة انتباهه جاذبة لاهتمامه، كما حقق أسلوب التكرار بعدا إيقاعيا وملمحا نغميا خلق رتابة دالة على الاستمرارية، مما يوحي باستمرار هذه الفاعلية وارتباطها بشخص الأمير فهي صفات قارة متصلة لا تنفصل عنه، إضافة إلى الأدوات المؤكدة تعميقا لهذه الدلالات مثل: (إنّي، الذي، وياء النسبة التي صاحبت قرائن المجد كهمتي، هزمي)؛ وإنه في كل ذلك ليفخر بمكانته وموقعه من الجيش فردا من جماعة ممثلا للقوة ومعاني المجد والإباء، وإن تجلي الهوية الفردية للأمير لهي في هذه الملامح والمعاني التي بها تحدد وجوده وتحققت فاعليته.

كما تتمثل في منهجية حياتية ارتبطت بالأمير عبد القادر في شؤون إمارته كوحدة متكاملة لا في ركنها العسكري وحده، يظهر مثل ذلك في قصيدة ***'شددت عليه شدة هاشمية'***

يقول:

لِذَاكَ عَرُوسُ المُلْكِ كَانَتْ خَطِيبَتِي كَفَجْأَةِ مُوسَى بالنُّبُوَّةِ فِي طُوَى

وَقَدْ عَلِمَتْنِي خَيْرَ كُفْءٍ لِوَصْلِهَا وكَمْ ردَّ عَنْهَا خَاطِبٌ بالهَوَى هَوَى

فَوَاصَلْتُهَا بِكْرًا لَدَيَّ تَبَرَّجَتْ وَلِي أَذْعَنَتْ والمُعْتَدِي بالنَّوَى ثَوَى[24]

فهو في هذه الأبيات يصف حصوله على الإمارة ويؤكد جدارته وأحقيته بها، في صورة شعرية تشبيهية مركبة رائعة بارعة استحضر فيها قصة النبي 'موسى عليه السلام' وتبشيره بالنبوة بالنداء الرباني العظيم في الوادي المقدس (طُوى)، في قوله تعالى: ***((إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى))***[25] في تناص تآلفي مع النص القرآني، فالإمارة شبيهة بالرسالة الإلهية قداسة لما تحملة من مسؤولية عظيمة تجاه الأمة، والأمير شبيه للنبي في تأديته لهذه الرسالة وتحمّله للمسؤولية، وأحقيته بالإمارة تشبه فضل النبوة عند موسى عليه السلام، وهي صورة تفيض بمعاني الشهامة والهمة والرشد لهذه الشخصية الفذة، وتشير إلى هوية إسلامية للأمير عبد القادر فاستحضار النصوص القرآنية تجل لهوية المبدع المسلم المتشبعة بتعاليم الدين لغة وفكرا، وتشكل محلا للفخر والاعتزاز بهذا الانتماء.

أما الصورة الثانية فقد قامت على تشخيص الإمارة مستعيرة سمات الأنوثة في حسنها ودلالها، وقبولها بعد تمنع للخاطب الشهم الكفء الذي يستحقها دون غيرها، هي تلك العروس الملكية، وقد حملت هذه الصورة تعميقا لدلالة جدارة وأحقية وكفاءة الأمير للإمارة؛ كما دلت هذه الصورة الشعرية المركبة على براعة الأمير الشاعر في التصوير وحسن اختياره لعناصر الصورة بين التشبيه في الأولى والاستعارة في الثانية، وقدرته على المقاربة بين أطرافها.

وهو فيها يشيد بنفسه ويفخر بتفرده وتميزه عمن سواه بسمات لهوية فردية حققت له شرف وفضل الزعامة والإمارة، كما يفخر تبعا لذلك بسياسته الرشيدة وحكمته وقيادته العادلة المنصفة إذ يقول:

وَقَدْ سِرْتُ فِيهِمْ سِيرَةً عُمَرِيَّةً وَأَسْقَيْتُ ظَامِيهَا الهِدَايَةَ فَارْتَوَى

وإنِّـي لأَرجُو أَنْ أَكُونَ أَنَا الَّذِي يُنيِرُ الدَّيَاجِي بالسَّنَا بَعْدَمَا لَوَى[26]

وهي صورة شعرية تشبيهية أخرى شبه فيها الأمير نفسه بعمر بن الخطاب رضي الله عنه في سيرته العطرة المسطرة بمداد العدل والإنصاف والحكمة والرشد والمبادئ الإنسانية الرفيعة السامية، متأصلة الجذور في تعاليم الدين الحنيف؛ ولعل في ذلك إشارة من الأمير إلى أن الشخص الذي يصلح للإمارة لابد أن تتوفر فيه سمات شخصية خاصة مميزة تشبه تلك التي اتصف بها 'عمر بن الخطاب رضي الله عنه' والذي لا يدانيه فيها أحد ولا يقاسمه فيها غيره؛ ومثل ذلك سمات شخصية الأمير عبد القادر لا يتوفر عليها أحد في زمانه هيئة وفكرا ومعرفة ودينا وقوة وعبقرية ومهابة، وقبل ذلك افتخر بعلمه في القصيدة ذاتها بقوله:

فَإِنْ شِئْتَ عِلْمًا تَلْقَنِي خَيْرَ عَالِمٍ وَفِي الرَّوْعِ أَخْبَارِي غَدَتْ تُوهِنُ القِوَى[27]

حين جمع بين العلم والقوة وهذان لا يجتمعان إلا في شخص ليس كغيره من الناس؛ لتكتمل بذلك صورة الهوية الفردية للأمير عبد القادر في جانبيها الداخلي والخارجي، التي جمع فيها الخصال الحميدة بصنوفها الدينية والثقافية والقيادية والحربية والإنسانية ولم يقصر في واحدة منها ليستقر رسم حدودها وفق هذه الصفات.

حيث تتجلى ملامح الشخصية الفردية في مدى وعي الفرد بانتمائه الديني والاجتماعي والثقافي الذي تتحدد معه الفاعلية الداخلية بين الأفراد، في محاولة الشخص الإحساس بفردانيته داخل هذه المنظومة بوجود المختلف الذي يتفاعل معه ويعتز فردا بقيم تعبر عن ذاته استقاها فطرة واكتسابا تبعا لانتمائه وتحققت ضمن تفاعله.

الهوامش:

1 – أسعد الامارة: سيكولوجية الشخصية: (http://www.ao-academy.org/wesima_articles/libraryl)

2 –الشخصية والهوية (http://edorous.com/philosophie)

3–أسعد الامارة: سيكولوجية الشخصية

4 – عبد العزيز بن عثمان التويجري: العولمة والهوية، مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية– سلسلة المنشورات–، 1997م، ص166.

5 – شتيح بن يوسف: ثلاثية الدين واللغة والثقافة ودورها في إرساء الهوية الوطنية، مجلة العلوم الإنسانية والاجتماعية –عدد خاص بالملتقى الدولي الأول حول الهوية والمجالات الاجتماعية في ظل التحولات السوسيوثقافية في المجتمع الجزائري–، جامعة قاصدي مرباح، ورقلة،ص507.

6 –ينظر: مقدمة ديوان الأمير عبد القادر الجزائري، جمع وتحقيق وشرح وتقديم: العربي دحو، منشورات ثالة، الجزائر، ط3، 2007م، ص25.

7– ينظر: بوجمعة بوبعيو وعمر بلمقني وبريكة بومادة: صورة الزعيم في الخطاب الشعري الجزائري الحديث –الأمير عبد القادر الجزائري نموذجا–، مطبعة المعارف، عنابة، الجزائر، دت، ص9،7.

8– مقدمة ديوان الأمير عبد القادر الجزائري، ص28.

9 – محمد بن سمينة: الأمير عبد القادر القائد الرائد: المكانة الأدبية للأمير الكاتب الشاعر، (http://www.eldjoumhouria.dz/Article.php?Today)

10 – ديوان الأمير عبد القادر الجزائري، ص19.

11– المصدر نفسه، ص21.

12 –سراج الدين محمد: الفخر في الشعر العربي، موسوعة مبدعون، دار الراتب الجامعية، بيروت، لبنان، دت، ص5.

13 – المرجع نفسه، ص5.

14 – ديوان الأمير عبد القادر الجزائري، ص45.

15 – المصدر نفسه، هامش ص45.

16 – شارل هنري تشرشل: حياة الأمير عبد القادر، ترجمة وتقديم وتعليق: أبو القاسم سعد الله، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، دت، ص63.

17 – المرجع نفسه، ص63.

18 – المرجع نفسه، ص62.

19 – محمد العربي ولد خليفة: المسألة الثقافية وقضايا اللسان والهوية– دراسة في مسار الأفكار في علاقتها باللسان والهوية ومتطلبات الحداثة والخصوصية والعولمة والعالمية–، ديوان المطبوعات الجامعية، منشورات ثالة، الأبيار، الجزائر، ص100.

20 – ديوان الأمير عبد القادر الجزائري، ص49.

21 – المصدر نفسه، ص49.

22 – محمد العربي ولد خليفة: المسألة الثقافية وقضايا اللسان والهوية، ص96.

23 – ديوان الأمير عبد القادر الجزائري، ص49.

24 – المصدر نفسه، ص54.

25 –سورة طه،12.

26 – ديوان الأمير عبد القادر الجزائري، ص54.

27 – المصدر نفسه، ص53.